الطوطمية في أنساب العرب

بين الإلحاد وتأليه الاناث





مقالة استقصائية
عبدالهادي بن حربي الزهراني
2024

الطوطمية من الجذورحتى الظهورإلى الربط الخاطئ بأنساب العرب :

◄ ظهرت حركة فكرية تسمى (المذهب الرومانسي) وهي حركة فنية أدبية وفكرية نشأت في فرنسا أواخر القرن الثامن عشر للميلاد، وسرعان ما راجت في بلدان أوروبية أخرى وبخاصة إنجلترا وألمانيا وإسبانيا حتى وصلت لذروتها في الفترة ما بين ١٨٠٠-١٨٤٠. ظهرت الحركة كرد فعل ضد الثورة الصناعية، كما كانت تعتبر ثورة ضد الأرستقراطية والمعايير الاجتماعية والسياسية في عصر التنوير. تجسدت الثورة بقوة في الفنون البصرية، الموسيقى، والأدب، وكان لها تأثير بالغ على التأريخ، التعليم، العلوم الطبيعية وتأثير كبير ومعقد على السياسة، ففي الوقت الذي وصلت فيه الحركة الرومانسية إلى ذروتها كان هنالك ارتباط وثيق مع الليبرالية والراديكالية وكان تأثيرها واضحاً على نمو القومية لدى الشعوب.

وقد اختار الرومانسيون «الرومانسية» - عنواناً لمذهبهم وحركتهم، وتعبيراً عن معارضتهم لسيطرة الثقافة اليونانية والثقافة اللاتينية على لغتهم وآدابهم القومية. وعرفت «الرومانسية» بالابتداعية أو الإبداعية بسبب أنها تعد ابتداعاً في المذهب الكلاسيكي، وتقويضاً لمبادئه وأركانه , وهو – أي المذهب الكلاسيكي - ينحصر في تقليد وبلورة ما أنجزه القدماء وخاصة الإغريق دون محاولة الابتكار والإبداع.

وإذا تجاوزنا الأسباب المباشرة لحدوث الرومانسية فإننا نجد كاتبين وفيلسوفين كبيرين أثرا في الحياة العقلية والأدبية الأوروبية، وإن كان هذا التأثير بعيداً عن محيط الرومانسية، ولكنه. على كل حال. ساعد على تمهيد أرض صلبة لنشوئها. وهذان الفيلسوفان هما: جان جاك روسو (١٧٢٢-١٧٧٨)، وفولتير (١٦٤٩-١٧٧٨) , فأما روسو فهو داعي للحريات التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية , وأما فولتير فقد كان لا يعتقد في أن الإيمان المطلق بالله يحتاج إلى الاستناد على أي نص ديني محدد أو فردي أو على أي تعاليم تأتي عن طريق الوحي. وفي حقيقة الأمر، كان كل تركيز فولتير ينصب على فكرة أن الكون قائم على العقل واحترام الطبيعة , وقد كان غير مرحب به في الكنائس , وتجرأ أيضاً على مقام النبي صلى الله عليه وسلم ومدحه تارة أخرى – مما يدل على خلل في عقليته المنفصمة – وقد انضم قبل وفاته إلى الماسونية .



جان جاك روسو



فولتير

وقد كان المذهب الكلاسيكي يعد أدب العقل والصنعة الماهرة وجمال الشكل، والمواضيع الإنسانية العامة، واتباع الأصول الفنية القديمة .

فجاء المذهب الرومانسي ليشيد بأدب العاطفة والحزن والألم والخيال والتمرد الوجداني، والفرار من الواقع، والتخلص من استعباد الأصول التقليدية للأدب , وأحياناً الثورة على المجتمع. فضلاً عن التحرر من قيود العقل والواقعية والتحليق في رحاب الخيال والصور والأحلام , والحرية الفردية أمر مقدس لدى الرومانسية، لذلك نجد من الرومانسيين من هو شديد التدين مثل شاتوبريان ونجد منهم شديد الإلحاد مثل شيلي. ولكن معظمهم يتعالى على الأديان والمعتقدات والشرائع التي تُعد بالنسبة لهم قيوداً , وكذلك الاهتمام بالطبيعة،

والدعوة بالرجوع إليها حيث فيها الصفاء والفطرة السليمة، وإليها دعا روسو , وفصل الأدب عن الأخلاق، فليس من الضروري أن يكون الأديب الفذ، فذّ الخُلق , ولا أن يكون الأدب الرائع خاضعاً للقوانين الخُلُقية.

ولذا فإننا نجد من يسطّح من فكر من يأخذ الأنساب العربية من الأدبيات المحفوظة والمنقولة عن علماء الانساب العرب تحت هذا التأثير للمذهب الرومانسي الصديق الحميم لليبرالية , والعدو اللدود للمذهب الكلاسيكي , في تقليد منه , ومحاولة إسقاط – بوعي منه أو بدون وعي - لأصول تلك الحركات التي نشأت في بيئة ودين وثقافة مختلفة على العرب والمسلمين الذين لهم دين يحيط أنسابهم بشيء من التحرز والتثبت , والمنهجية المنضبطة والمحفوظ كثير من قواعدها بنصوص من مصادر التشريع الإسلامي , فلا العرب إغريق , ولا أنسابهم أساطير رومانية !! .

◄ وتحت تأثير (المذهب الرومانسي) في ألمانيا , وفي سياقها , نشأ مصطلح [Urreligio الدين البدائي أو الدين الأوريلي] وهو شكل "أصلي" أو "أقدم" من التقاليد الدينية , ويتناقض هذا المفهوم مع الديانات المنظمة اللاحقة مثل الأنظمة الثيوقراطية المبكرة في الشرق الأدنى القديم وفي ديانات العالم اللاحقة , ويذهب معظم الكتّاب إلى أن هذا المصطلح قدمه لأول مره جورج فريديرش كروزر – وهو فلسفسي ألماني وعالم في الآثار وفقه اللغة في جامعة هايدلبرغ في ألمانيا ت ١٨٥٨م - عبر مناقشته له باسم [الدين البدائي التوحيدي] عام ١٨١٠م , وغالبًا ما يستخدم بمعنى الدين الطبيعي أو دين السكان الأصليين ، وهو السلوك الديني للمجتمعات القبلية ما قبل الحداثة مثل الشامانية والروحانية وعبادة الأسلاف .



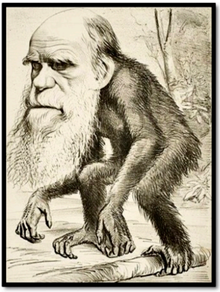
جورج فريديرش كروزر

◄ ثم ظهر في الأوساط العلمية (مذهب النشوء والإرتقاء) أو كما يسمى (الداروينية) نسبة إلى تشارلز داروين (١٨٠٩-١٨٨٢) , وهي نظرية تشرح التطور البيولوجي طورها عالم الطبيعة الإنجليزي تشارلز داروين ومعه علماء آخرون، تنصُّ على أنَّ جميع أنواع الكائنات الحية تنشأ وتتطور من خلال عملية الانتقاء الطبيعي للطفرات الموروثة التي تزيد من قدرة الفرد على المنافسة والبقاء على قيد الحياة والتكاثر , تسمى أيضًا النظرية الداروينية وقد تضمنت المفاهيم العامة لتغير الأنواع أو التطور وظهرت النظرية بعد نشر داروين كتابه (أصل الأنواع) في عام ١٨٥٩م , وتضمنت المفاهيم التي سبقت نظريات داروين. أشارت بعد ذلك إلى المفاهيم الخاصة بالانتقاء الطبيعي أو الهدف الرئيسي علم الأحياء الجزيئي , وبأن جميع الكائنات الحية منذ بدء الخليقة حتى الآن تتشارك أسلافا مشتركة، وأن القرد هو السلف للبشر , وقد لاقت نظرية داروين اعتراضات مختلفة على أسس علمية وسياسية ودينية، وأبرزها تلك الاعتراضات التي قادها جورج كوفييه الذي دافع عن الخلق المباشر، وريتشارد أوين. واستمر خلال القرن العشرين وعلى الأخص في الربع الأخير منه وحتى الآن الانتقادات من علماء مختصين وغير مختصين , ويرى المنتقدون أن النظرية بنيت منذ بدايتها على أمرين هما الأدلة الافتراضية وذاك ما اعترف به تشارلز داروين بأنها غير موجودة بالفعل، والأمر الثاني من الأدلة الخاطئة مثل توريث الصفات الجسدية المكتسبة وغيرها، وقد أشار داروين في الفصل السادس من كتابه أصل الأنواع الذي عنونه بصعوبة النظرية ومن ذلك الغياب التام للحفريات الوسطية أو البينية أو الانتقالية بين الأنواع، ولا يعني ذلك إيجاد حفرية أو اثنتين بل من المفترض إيجاد الكثير من الحفريات , وتم اكتشاف حفريات تثبت فشل وخطأ نظرية التطور , ومنها : ١) آثار أقدام إنسان عصري عمرها ٣,٦ مليون سنة التي عثر عليها سنة ١٩٧٧ في منطقة بتنزانيا، ولقد عثر على هذه الآثار في إحدى طبقات الأرض التي قُدر عمرها بنحو ٣,٦ مليون سنة , و ٢) اكتشاف كوخ يعود تاريخه إلى ١,٧ مليون سنة عُثر عليه في أوائل السبعينات في منطقة في جورجيا , ويتمثل الجانب غير العادي في هذا الحدث في أن هذا البناء الذي لا يزال يستخدم في بعض أجزاء من أفريقيا ما كان يمكن لأحد بناءه غير الإنسان العاقل، ووفقا لما توصل إليه مكتشفوه فلابد أن يكون القرد الجنوبي والإنسان القادر على استخدام الأدوات والإنسان منتصب القامة والإنسان العصري قد عاشوا معًا قبل نحو ١,٧ مليون سنة تقريبًا , و٣) اكتشاف عظمة بشرية تعود ل ١,٨٤ مليون سنة، والعظمة عبارة عن خنصر في اليد اليسرى لإنسان عادي، والعظمة تتطابق مع عظام البشر الحاليين بشكل كبير ولا يمكن نسبها إلى أسلاف البشر , هذا الاكتشاف الذي سيشكل صدمة لأنصار نظرية التطور، ويعارض رواية أسلاف البشر وتطورهم، فالإنسان القديم هو نفسه الإنسان الحالي بكامل تميزه عن القرود , وغيرها من الأدلة المادية الكثيرة , وقد وُصِف داروين وقُدِح بالغباء بشكل غير مباشر في العديد من المقالات العلمية , حيث أن علماء عصره نقدوه نقد علمي لاذع , وقالوا إن ما

جاء به مناقض للعلم , يقول الأستاذ فيالتون Vialleton - المدرس في جامعة مونبلييه في فرنسا ت ١٩٢٩م وكان أول أستاذ لعلم الأنسجة في كلية الطب – قال : [إن داروين قد ذهب في نظريته مذهبًا جاهلًا ماهية القواعد التي تتنزل عليها الجزئيات، وانخدع بعلاقات الأنواع بعضها مع بعض، كما أن خلفاءه في المذهب قد نظروا إلى المناسبات الصورية التي بين الأنواع نظرًا سطحيًّا، وقرروا النشوء والارتقاء بدون تأمل كافٍ في كيفية قيام هذه الأنواع بوظائفها] , وكان الكيميائي الفرنسي مارسيلان برتلو - وهو من أشهر علماء الطبيعة ويعتبره البعض أعظم الكيميائيين على مدى التاريخ وهو من أساتذة كلية فرنسا التي تقوم بالتدريس ولكن على مستوى الباحثين وطلبة الدراسات العليا في البحث العلمي ت ١٩٠٧م – كان ينعت مذهب داروين بقوله : [قصة داروين الخيالية] و [قصيدة لامارك الفكرية] , وقد رد عليه غيرهما كثير , وكان أول من أدخل الداروينية إلى العرب هم الملاحدة العرب الذين كانوا ينتمون للنصرانية , وكان شبلي شميّل – وهو طبيب وكاتب علماني لبناني نصراني تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت ت ١٩١٧م - أول من نشر مذهب داروين باللغة العربية وانتصر له في كتابه (فلسفة النشوء والارتقاء ١٩١٠م) وناضل دونه وإذ كان رجال الدين ولا سيما الكاثوليك الذين نشأ شميل على مذهبهم يعدون هذا المذهب من دعائم الكفر، ولم يكتف الرجل بذلك بل كان يصرح قولاً وكتابة بالتعطيل والإلحاد , ثم تلاه سلامة موسى العلماني الاشتراكي المصري المعادي للإسلام كما وصفه الرافعي بذلك , والذي كان يدعوا إلى اتباع الغرب صراحة وقطع مصر عن الشرق الأوسط وذلك في كتابه (السوبرمان) في فصل اسماه (فكرة نشوء فكرة الله) , ثم جاءت كتابات النصراني اللبناني حنّا نمر ت١٩٦٤م والذي وضع مؤلَّفه بعنوان (الداروينية) ، متخذاً منها وسيلة للبحث في مذهب داروين وتأييده. وفيه أثبت أن الإنسان لم ينحدر من القرد، بل كلاهما انحدر من أصل واحد.

ونلاحظ أن في العصر الحديث من يتبنّى هذه الاطروحات ويجعلها أرضية لتقييمه للفكر الإسلامي العربي عبر الإنكار للروابط النسبية أو الطعن فيها انطلاقاً من التمترس خلف هذه الهرطقات الداروينية , واستعراضاً لمدى التطوّر الفكري الذي وصل له هؤلاء المنظّرين الاتباع لمذهب داروين , وهم في هذا يقعون في ما ينتقدون التأصيليين من أهل الأنساب في الإتّباع للأنساب العربية المحفوظة وينعتونهم بأنهم مقلدين , ويبثون الدعاية عنهم بأنهم يعطلون عقولهم ويسلمونها لكُتّاب الأنساب , وهم عطلوا عقولهم ودينهم وانسانيتهم وسلموها لداروين !! , وتجدر الإشارة إلى أن مشاريع الجينيوم البشري في غالبها تفترض صحة ما ذهب إليه داروين من الاشتراك في السلف بين الانسان والقرود , وطورت برمجيات منطلقة من صحة هذا الافتراض , لذا فهي محل التوجّس في مشاريعها عامة , وخصوصاً تلك المشاريع التي تتجه إلى القبائل العربية , فهي تنطلق من صحة هذا الافتراض , وتتقاطع مع مشاريع لاهوتية حديثة تبحث عن الأسباط اليهود وذراريهم , لذا فهي مشاريع لا

يُطْمَئَن إليها علمياً , ولا يمكن الركون لقراءاتها الموجهة داروينياً أو لاهوتياً , هذا لو أفترضنا أصلا انضباط تلك المشاريع مع الأداة الشرعية الإسلامية في التعامل مع الانساب البعيدة إقراراً أو نفيا .



كاريكتير نُشِر في عام ١٨٧١ يُظْهِر تشارلز داروين على هيئة قرد، ميزة له في الثقافة الشعبية على حسب أنه هو المؤسس الرئيسي لنظرية النشوء والارتقاء .

◄ تحت تأثير مصطلح [Urreligio الدين البدائي أو الدين الأوريلي] الذي قدمه جورج كروزر , وتحت تأثير شيوع مذهب الدراوينية : الارتقاء والنشوء , قدّم يوهان جاكوب باهوفن - عالم آثار سويسري وعالمًا في علم الإنسان وأستاذًا للقانون الروماني في جامعة بازل بسويسرا ت ١٨٨٧م - نظرية تسمى [حق الأم] , وفيها ظهر مصطلح [الدين الأمومي أو النظام الأمومي] وذلك في كتابه (حق الأم : تحقيق في الطابع الديني والقانوني للنظام الأمومي في العالم القديم) الصادر عام ١٨٦١م , وفيه تكهن باهوفن بأن المجتمعات البشرية المبكرة ربما كانت منظمة حول الإلهة الأنثوية والهياكل الاجتماعية الأمومية , وبأن الأمومة سابقة في تاريخ العائلة للأبوّة , وأن الزواج عند الأقدمين فوضى بلا شرط , وهو زواج المشاركة , فإذا ولدت الأم غلاماً فإنه لا يمكن تعيين والده فيرتبط بها للرضاع , ثم ينسب إليها , فصيّر الانتساب للأمهات قاعدة عامة , ومن هنا أصبحت المرأة صاحبة النفوذ في تلك المجتمعات في المقام الأول , كحال الرجال اليوم – كما يرى هو - , وفي القرن العشرين أدت حركة إحياء هذه الممارسات إلى ظهور حركة الإلهة أو تمسى حركة الرَّبَّة – وهي حركة تصنّف ضمن الوثنية الحديثة Neopagan وتتضمن معتقدات وممارسات روحية وظهرت في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية وأستراليا ونيوزيلندا خلال السبعينيات , ونمت حركة الإلهة هذه كرد فعل ضد الأديان الإبراهيمية ،

التي لها آلهة حصرية يُشار إليها بالمقالات والضمائر النحوية المذكرة ، وتدور هذه الحركة حول عبادة الإلهة وتبجيل الأنثى الإلهية ، وقد تتضمن التركيز على النساء أو على فهم واحد أو أكثر للجنس أو الأنوثة , ويُشار إلى حركة الآلهة أيضًا على أنها شكل من أشكال التدين الثقافي الذي يتزايد تنوعًا، وانتشارًا جغرافيًا، وانتقائيًا ، وأكثر ديناميكية في العملية - .

وعوداً على نظرية (حق الأم) التي قدمها باخوفن , فإنها لم تكن بمحل ترحيب من الناحية العلمية , ولقد بقي باخوفن عدة اعوام معزولاً من الناحية العلمية , وذلك بسبب رفض نظريته هذه من قبل علماء عصره .



باخوفن



رمزية حركة الإلهة أو الرَّبَّة

وقد كان باخوفن متأثر بشكل مباشر وغير مباشر بنتائج البعثات اليسوعية للهنود في الأمريكتين , ولذا فإنه قد تشابه طرحه مع طرح أحد اليسوعيين الذين ذهبوا لقبائل الهنود الحمر خاصة في امريكا الشمالية , حيث كان أحد اليسوعيين اسمه – ليفتاو – قد عاش بين قبائل الاروكيزن (الاريكوا) والهورونن , وهي من قبائل الهنود الحمر, وجمع عنهم معلومات عديدة ووضع دراسة مقارنة عن العادات والتقاليد الشائعة عند الهنود الحمر في امريكا الشمالية , وتوصل فيها الى رأي يتفق مع ما جاء به - هيرودوت - حول انتساب هذه القبائل الى خط الام , وقد جمع ليفتاو نصوصا عديدة من المؤرخين الاغريق امثال هراكليوس وبونتيكوس ونيلوكوس ودمسكوس , تدعم الارتباط بين الانتساب الى خط الام وبين النظام الاجتماعي الذي يعطي السلطة في يد الام .

◄ ومن التأثر من هذه الأمومة المزعومة التي لم تلق ترحيب في الأوساط العلمية حين ظهورها كتب جون فيرجسون ماكلينان – عالم اسكتلندي في الأعراق والأنثروبولوجيا الاجتماعية ت ١٨٨١م – عدة مقالات بين عامي ١٨٦٩م – ١٨٧٠م , وكان في مقالاته هذه أول من يمكن الإشارة إليه أنه استخدم كلمة [الطوطم Ototemom] الاستخدام الأنثروبولوجي المعروف من حينها , وهي كلمة في أصلها مأخوذة من يتكلم بها هنود البحيرات الكبرى في أمريكا الشمالية , وتعني لديهم ولدى الهنود الحمر في امريكا وفق المنظور الديني الإعتقادي كديانة وثنية : [إعتقاد القبيلة أو الجماعة بوجود صلة لهم بحيوان أو نبات أو ظاهرة طبيعية – وهو الطوطم - يكون في نظرهم مقدساً في علاقة مركبة مقدسة بينهم وبين هذا الطوطم المقدس] , وهناك تعريف آخر لها وهي : [نظام أو عقيدة مبنية على أصل حيواني أو نباتي أو جماد , اتخذته العشيرة رمزاً إلاهياً لها ولقباً يُعرِّف جميع أفرادها , ويعتقدون أنه خالقهم وأنهم من صلبه , فلا يؤكل ولا يُقتل ولا يؤذى] , وقد كان هذا المصطلح قبل أن يستخدمه ماكلينان استخداماً انثروبولوجيا قد دخل إلى الغرب لأول مرة عام ١٧٩١م عن طريق كتاب ألفه – جون لونك – وهو من الهنود الحمر الأمريكيين كان يعمل ترجمانا في شركة الهند , ووردت هذه الكلمة عند كتاباته عند ديانة الهنود الحمر في كتابه المعنون بـ (أسفار ورحلات لترجمان هندي) وقد تضمن إشارات مقتضبة عن الديانة الطوطمية وعقائدها وشعائرها وأثرها بين قبائل الهنود الحمر .



جون فيرجسون ماكلينان

وطوّر ماكلينان النظرية القائلة بأن النظام الأمومي كان أول شكل من أشكال الثقافة قبل النظام الأبوي , متأثراً بباهوفن كما أوضحنا سابقاً - مع أنه قد كتب مزامن له هربرت سبنسر أحد أتباع تشارلز داروين الأوائل (نُشر كتاب "أصل الأنواع" عام ١٨٥٩) - في عام ١٨٧٠ نصاً يناقش عبادة الأسلاف والطوطمية التي كانت تسمى آنذاك عبادة الحيوانات والنباتات يشرح النص العلاقة بين عبادة الأسلاف والاعتقاد بأن الروح تعيش بعد موت الإنسان – إلا أن ماكلينان هو الأشهر تنظيرياً في هذا , وكان قد ألّف كتابه (الزواج عند القدماء) ونشره لأول مرة عام ١٨٦٥م , ولم تكد تنتشر آراءه في الطوطمية حتى تصدى لها علماء الاجتماع لانتقادها , وفي مقدمتهم الفيلسوف سبنسر المزامن له , والسير جون لبك العالِم الاجتماعي الشهير , وتتلخص الطوطمية بالآتي :

١) أنها شائعة الآن بين أكثر الأمم أعراقاً في الوحشية .

٢) أنّ قوامها اتخاذ القبيلة حيواناً أو نباتاً أو شيئاً آخر من الكائنات المحسوسة أباً لها تعتقد أنها متسلسلة منه وتتسمى باسمه .

٣) أن كل قبيلة تقدّس طوطمها أو تعبده .

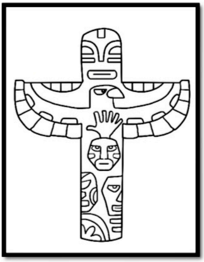
٤) تعتقد كل قبيلة أنّ طوطمها يحمها ويدافع عنها , أو على الأقل لا يؤذيها وإن كان الأذى طبعه .

٥) الزواج ممنوع بين أهل الطوطم الواحد , وأساس التناسل عندهم التزوج ببنات من أصحاب الطوطمات الأخرى .

٦) أنّ الأبوّة ضائعة عندهم ومرجع النسب إلى الأم.

٧) لا عبرة عندهم بالعائلة , وإنما القرابة تنتهي إلى الطوطم , وأهل الطوطم الواحد إخوة وأخوات يجمعهم دم واحد.

وكذلك بناء على هذه الطوطمية فإن طوطم القبيلة من الوجهة الاجتماعية يراد به تعاقد أهل القبيلة بينها باعتبار علاقتها بالقبائل الأخرى , وكل أتباع طوطم يناصرون بعضهم , ويتقمصون شخصيته , فيقلدون مشيته احياناً , ويرسمونه على المواليد , ويتسمون باسمه , فهو من الوجهة الدينية يعتبر أباً للقبيلة وأنها من نسله , ولكل قبيلة حديث خرافي عن طوطمها يتناقلونه أباً عن جد , وعلى المستوى القبلي فإن الطوطم على ثلاث مستويات : طوطم القبيلة ويشترك في احترامه كل أفرادها ويتوارثونه , وطوطم الجنس ويحترمه أحد الجنسين , والطوطم الشخصي ويحترمه الشخص الواحد ولا يرثه عنه ابناءه .



طوطم من الديانة الطوطمية لدى الهنود الحمر

◄ وقد جاء بعد ماكلينان أحد المستشرقين اللاهوتيين وهو ويليام روبرتسون سميث – مستشرق استكلندي وباحث في العهد القديم التوارتي واستاذاً في اللاهوت ت ١٨٩٠م وقد حوكم بتهمة الهرطقة وفقد منصبه الكنسي حيث أنه ابن لأحد القساوة وصاحب أفكار كنسية توارتية وكان يعامل النص التوارتي معاملة النقد للنصوص الأدبية – وقد حاول ويليام تطبيق ما ذهب إليه ماكلينان على العرب عبر كتاباته وكتبه مثل (أديان الساميين) و (أنساب العرب) .



ويليام روبرتسون سميث



جرجي زيدان

وقد درس جرجي زيدان – وهو مؤرخ وأديب وروائي نصراني لبناني ت ١٩١٤م - هذه الآراء والاسقاطات , ونقدها , وفندها , ولما فيها من سبق فائدة سأستعرضها اختصاراً , وذلك عبر كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) و (أنساب العرب القدماء: وهو رد على القائلين بالأمومة والطوتمية عند العرب الجاهلية) , وذلك في مجمل الصفحات الآتية – حتى الإشارة إلى نهاية الاختصار عنه – وذلك وفق الآتي :

إن من يطالع رأي ويليام سميث صاحب طوتمية العرب , ومن يقول قوله من المستشرقين , يدرك لأول وهلة أنهم إنما حملهم على ذلك أمران : الأول : ضعف ثقتهم بأقوال مؤرخي العرب , والثاني : شيوع مذهب الارتقاء في قواعد العمران والارتقاء عموما وهو الذي حمل أدباء الفرنج على رد كل شيء إلى أسباب طبيعية .

وهكذا أراد ويليام سميث صاحب طوتمية العرب , فإنه لمّا اطلع على ما كتبه ماكلينان عن الطوطم في القبائل المتوحشة في هنود أستراليا وأمريكا ونحوها – وهو مستشرق مطلع على أخبار العرب سيئ الظن في جاهليتهم

ويحتقر أقوال رواتهم ونسابيهم – ورأى بين أسماء القبائل والبطون العربية ما يشبه أسماء الحيوانات , سبق إلى وهمه أنها من آثار الطوطمية عندهم , فوضع هذا الحكم نصب عينيه , وأخذ على نفسه أن يبرهنه , ولما كانت الطوطمية مبنية على الأمومة عمد إلى اثبات هذا , فأتى بأدلة ضعيفة تجاوز بها حد التكليف , واستشهد بنوادر من أخبار العرب , فجعل الشاذ قاعدة , وأغفل القواعد العامة الثابتة التي أجمع عليها النسابون والرواة , مما يخالف أصول البحث , وهذا غريب من عالِم اطلع على أخبار الأمم وخرافاتهم , وعلم أن التاريخ القديم أكثره مأخوذ من الخرافات المأثورة عن الأسلاف , يمحصها المؤرخون ويستخرجون صحيحها من فاسدها , فلا يحتقرون خرافة ولا ينكرون قولاً , فإن ما في إلياذة هوميروس من أخبار الآلهة وخرافاتهم لم يمنع العلماء من تمحيصها والتمييز بين التاريخ والدين والخرافة فيها , ويقال نحو ذلك عن أخبار الهنود القدماء , منذ نزل جماعة الآريين إلى بلاد الهند على ما هو مدون في كتبهم السنسكريتية , وهكذا ينبغي أن يُقال في خرافات العرب , مع بعدها عن مألوفنا فإنها لا تخلو من حقائق تاريخية ذات بال , قد كشف الزمان صدق كثير منها .

ويرى سميث أن العرب كانوا في أقدم أزمانهم ينتسبون إلى آباء من الحيوانات أو النباتات التي كانوا يعبدونها ويقدسونها ويستمون بأسمائها , وكان شأنهم في الزواج والمومة وغيرها مثل شأن القبائل المتوحشة في أستراليا وأمريكا وأفريقيا , وأن المشهور من انتساب العرب إلى إسماعيل وقحطان وتسلسل القبائل على الصورة المعروفة إنما هو حادث وضعه أهل الأغراض في زمن حديث لا يتجاوز القرن الأول للهجرة , مبنياً على ديوان الخليفة عمر بن الخطاب من حيث حقوق المسلمين في العطاء بالنظر إلى القبائل وأنسابها , ولتأييد هذا الرأي بدأ أولاً بإثبات الأمومة عند العرب , فقال : إن العرب في الزمن القديم لم يكن عندهم عائلة رئيسها الأب , ولا كانت الأنساب تتصل بالآباء , بل كان الزواج عندهم نحو ماهو في بلاد التبت اليوم ويعرف بالزواج التيبتي , وذلك أن المرأة تتزوج برجلين فأكثر , وأولادها لا ينتسبون لأحدهم بل ينتسبون إلى القبيلة ويتسمون بطوطمها .

أدلة صاحب طوطمية العرب ونقضها :

<u>الشبهة الأولى :</u> يرى سميث أن أنساب العرب خرافة , وأنها طوطمية , ولم تقيّد إلا في زمن الخليفة عمر بن الخطاب بناء على ديوان العطاء لتلك الجماعات , واستشهد بما ذهب إليه المستشرق الألماني نولدكه بأن أنساب العرب التي وضعها ابن الكلبي وغيره بعد الإسلام لفقوها تلفيقاً .

<u>الرد عليها ونقضها :</u> لا يمكن أن يتواطئ العرب كلهم إلى هذا الحدّ , ولو افترضنا صحة هذا التواطئ فهل حصل قبل الإسلام أم بعده ؟ فإذا قيل قبل الإسلام فما الذي دعى لحصوله ؟ ولا نعلم سبباً يدعو إلى ذلك

أصلاً , بل ولا نظن سميث يعلم أيضاً سبباً لذلك , وإذا قيل بل بعد الإسلام وهو رأي سميث فكيف يجوز ذلك وهذه أشعار العرب الجاهلية وأقوالهم وأخبارهم وأمثالهم شاهدة بمحافظتهم على النسب وعنايتهم بالرجوع إلى أجدادهم من قحطان وعدنان , بل كيف يقال هذا والإسلام منذ ظهوره يحرّص على حفظ الانساب وكذلك الخلفاء , وإذا افترضنا صحة هذا فكيف ترضى القبائل التي أبعدها هذا التواطئ عن النسب النبوي أو وضعوها بموضع يقل عطائها فيه ولا تحتج على ذلك ؟ , وكيف لم تستغل الشعوبية ذلك ويطعنون في العرب ويضعون من شرفهم ؟ وقد طعن الشعوبية في العرب من ناحية استلحاقهم للأدعياء مما يدل على إقرارهم على أنسابهم برغم عدائهم لهم .

<u>الشبهة الثانية :</u> الأمومة عند العرب : يرى سميث أن هناك أدلة على الامومة عند العرب من خلال عدة قرائن يناقشها ليثبت لاحقا الطوطمية , وهذا القرائن التي يراها هي ما وجده عند العرب بالنحو الآتي :

- **الانتساب إلى الأمهات** , مثل : بني خندف وبني ظاعنة وهي أسماء نساء نسبت القبيلة إليها , **<u>ونقضها :</u>** أن هذه أسماء نادرة قليلة في القبائل العربية ولا يمكن تعميمها للحكم بناء علها , وهي أسماء معروفة الانتساب إلى الآباء الرجال , وأن هذه التسمية ليست من قبيل الأمومة بل لها ما يفسرها , فبعض هذه العائلات والقبائل نسبت إلى جدتهم العليا لأن جدهم مات وهي كفلتهم وربتهم وعرفوا باسمها , أو لأن أب القبيلة كان متزوج بأكثر من امرأة فينسب كل من أولاده نسبة إلى أمه مثل (محمد بن الحنيفية وهي أمه من بني حنيفة) , وربما يشتهر أحد الأبناء نسبة إلى أمه لشهرتها وفضلها مثل (هارون الرشيد اشتهر بابن زبيدة لفضل أمه على سائر أمهات الخلفاء وشهرتها) .
- **تأنيث أسماء القبائل** : مثل قولهم : جاءت مضر أو أقبلت قيس , ولا يقولون : جاء مضر أو أقبل قيس , <u>ونقضها :</u> أن هذا لا علاقة له بالأمومة , بل قاعدة لغوية , حيث التذكير والتأنيث في العربية لا قياس لهما , وأن هذه الصيغة ليست دليل على وجود الأمومة , فالتأنيث للفظ القبيلة المحذوف في قولنا جاءت مضر أي جاءت قبيلة مضر .
- **التعبير عن القرابة بالبطن** : ويراه سميث أنه يؤيد ما ذهب إليه من اعتماد العرب على قرابة الأم وبالتالي الأمومة , **<u>ونقض ذلك :</u>** أن البطن فرع من فروع القبيلة على سبيل التشعب كالشجرة , وإنما جعلوا أسمائها شبيهة بأسماء أجزاء البدن بالنظر إلى علاقتها ببعضها البعض أو تفرعها من بعض , فالشعوب هي الفروع , والشعبان النصفان وكأنهم أرادوا انقسام الجسم إلى شطرين متساويين , ويلها القبائل وهي قطع عظم الرأس المشعوب بعضها من بعض , ثم العمارة كناية عن الصدر ثم البطن ثم بعده الفخذ وأخيراً الفصائل , وكل هذا لا علاقة له بالأمومة .

- **اشتقاق لفظ الأمّة من الأم :** ويرى سميث أن هذا دليل على أن الأصل في النسب إلى الأم , وخصوصاً لأن الأم في العبرانية تدل على القبيلة أو الجماعة , **<u>ونقض ذلك :</u>** أن هذا تعبير من قبيل المجاز , كقولهم : أم القرى , وأم المدائن , فالأم هنا الأصل , وأم كل شيء عماده وأصله , وكل شيء انضمت إليه أشياء فهو أم لها , والأصل في هذه المعاني اتباع الأطفال أمهم في تعبير مجازي وليس حقيقي , وهذا اللفظ موجود في كثير من اللغات , فلفظ Nation في اللغات الافرنجية معناه الأمة وهو مشتق من اللاتينية بمعنى ولد , والانجليز يقولون Motherland ويريدون بها وطن الأبوين مع أن اللفظ يقتضي أن تكون وطن الأم فقط , فعلى تعليل سميث تكون هذه اللفظة دليلاً على شيوع الامومة عند الانجليز الآن !.
- **الخال والعم :** ويرى سميث أن هذه الالفاظ تطلق على كل رجل من أهل الأم وليس فقط على أخوها الحقيقي , وأن لفظ العم معناها الشعب , وذلك هو مؤداها في العبرانية إلى الآن , وعليه فليس عند العرب عائلة خصوصية بل جماعة على ما تقتضية الامومة والطوطمية , **<u>ونقض ذلك :</u>** أن هذا قول غريب , ولو طبقناه على الانجليز لتشوشت أحكامنا على أنسابهم , لأنك ترى عندهم نفس هذا الاطلاق أو الاشتراك , فلفظ Cousin في ألسنتهم يدل على كل قرابة عصبية أبعد من الأخوة , فهو ابن العم وابن الخال وبنات الاعمام والاخوال إلخ مما لا مثيل له بالعربية , فعل يفيدنا إطلاقه على كل الاقرباء أن الأصل في القرابة هو الأم ؟.
- **زواج المتعة :** ويرى سميث أن هذا النوع من الزيجات الذي هو وقتي ينقضي في أجل مسمى كان شائعاً عند العرب عند ظهور الإسلام وأنه يقتضي الاموومة عند العرب من ناحية إباحة نساء القبيلة لأهل القبيلة , **<u>ونقض ذلك :</u>** أن المتعة عند ظهور الإسلام على اختلاف القول الفقهي فيه مرتبط بعقد , وهذا يناقض ما يريد اثباته , وهو ضرب من ضروب الزواج يكون الرجل فيها صاحب العصمة .
- **الوأد :** يرى سميث أن شيوع الوأد في الجاهلية قلل البنات فاضطروا للإشتراك في النساء ويكون الانتساب إليها , **<u>ونقض ذلك :</u>** أن هذا تعميم في ما لا يقتضي التعميم , فالوأد مبالغ فيه من قبل بعض الكتّاب , فهو قليل في الجاهلية وليس ظاهرة , وله أحوال مخصوصة , وأسباب منصوصة , منها الخوف من العار أو الفقر , فأما الخوف من العار فهو سبب يناقض مبدأ الامومة أصلاً لأنه لو صحت الأمومة لم يكن هناك عار يخافه الآباء , وخوف العار دليل الغيرة أيضاً وهي لا تكون في زواج المشاركة أو الأمومة , وهذا يسقط حجية الوأد في الامومة والطوطمية .
- **العصمة في يد المرأة :** ويرى سميث أن وجود العصمة في يد المرأة في الزواج والطلاق دليل على سيادة الامومة والطوطمية , وأن المرأة هي رئيسة العائلة , **<u>ونقض ذلك :</u>** أن المرأة لم تكن عصمتها بالجاهلية

في يدها إلا في أحوال مخصوصة وحوادث نادرة لا يمكن أن نجعل منها قاعدة شائعة عامة , حيث أن القاعدة أن تكون العصمة في يد الرجل , وفي حال كونها في يد المرأة على النادر الشاذ فإنها ليس على سبيل الاباحة والأمومة , بل مقيد بشروط وقوانين .

الشبهة الثالثة: الطوطمية بناء على اعتقاد سميث أنه استطاع اثبات الامومة عند العرب :

وهو لم يثبت أبداً الامومة عند العرب حتى يقال أنه أثبت الطوطمية عند العرب , فإذا نقض القول بالأمومة عند العرب نقض معه القول بالطوطمية عندهم ؛ لأنها أساسها وأول شروطها , فالطوطمية يشترط فيها (أن يتفق أهل القبيلة الواحدة على حيوان أو نبات أو كائن آخر يعتقدون أنه جدهم الأعلى يتسمّون باسمه ويعبدونه أو يقدسونه) , فعل ينطبق ذلك على أحوال العرب في الجاهلية انطباقاً كلياً أو جزئياً ؟ , ولكي ينجل الموضوع ويتضح البرهان نحلل القضية إلى أجزائها الاصلية , وعليه فالطوطمية تقتضي مقدمات ثلاث لا يمكن القول بالطوطمية عند العرب ما لم تجتمع هذه الثلاث عند العرب , وهي :

١) أن يتفق أهل القبيلة الواحدة على حيوان أو نبات أو كائن آخر يعتقدون أنه جدهم الأعلى : وهذا لم يثبت عند العرب , ولا في النقوش التي تحدثت عنهم , ولا في أخبارهم , ولا نجد بينهم قبيلة ولا بطنا يعتقد أنه متسلسل من أسد أو ثور أو ثعلب أو وردة , ومهما أجهدت نفسك في التنقيب والمراجعة والتأويل فإنك لا تجد أثراً لهذا الاعتقاد على الاطلاق ولو على سبيل الخرافة , وعليه فالمقدمة الأولى سقطت .

٢) أن يتسموا باسمه أو ينتسبوا إليه : وهذا بعضه صحيح , فبعض القبائل تسمى بأسماء الحيوانات كبني أسد وبني النمر وبني كلب ونحوها , ولكنها لا تعتقد أن أولئك الأجداد حيوانات , بل هي تعدهم أناساً لهم أنساب متصلة بالآباء الأولين , وعليه فالمقدمة الثانية سقطت .

٣) أن يعبدوه أو يقدسوه : وهي مقدمة ظاهرها صحيح وباطنها فاسد , فبعض العرب عبدوا أصنام على شكل حيوانات , مثل عبادة سائر الأمم الوثنية ممن كانوا يعبدون أصناماً يمثلون بها القوى العلوية , لا انها تعبد حيوانا خاصا تقدسه وتجتنب أذاه وتعتقد أنه جدها كما يفعل أصحاب الطوطم , ولم يأتي سميث بدليل على أن قبيلة من القبائل العربية المسماة بأسماء الحيوانات كانت تعبد صنماً بشكل الحيوان الذي تتسمى به , وإن كان توفيقه إلى ذلك لا ينفعه شيئاً , لأن المطلوب أن القبيلة التي تتسمى باسم حيوان يجب أن تقدس جنس ذلك الحيوان لا صنماً بشكله .

وعليه فمذهب الطوطمية عند العرب ساقط سقوط الامومة , ثم هو ساقط لبُعد أحوال العرب عن شروط الطوطمية كما ثبت من سقوط المقدمات الثلاث السابقة .

وقد نقض جرجي زيدان أقوال أخرى تفصيلية في الطوطمية عند العرب لسميث , إلا أنها في قواعدها العامة لا تخرج عن هذه المقدمات الثلاث السابقة , وقد بين عوار مذهب سميث , وتحميله النصوص ما الا يحتمل , وانكاره ما لا ينكر مثل انكاره أن العرب كانوا يعرفون نظام العائلة أصلاً ! , وتعليله لتمسية العرب بأسماء الحيوانات ومن ذلك : بسبب صفة ظاهرة والخوف من انقطاع الذرية بالتسمي بالاسماء الوحشية وللتفاؤل وغيرها , وتسميتهم للأصنام مثل (عبد قيس وعبد يغوث وعبد مناة) وغيرها أنما هو للعبودية لها لا للطوطمية وهذا موجود عند أمم أخرى غير العرب : فالآشوريين تسموا بالنسبة إلى آلهتهم مثل (متاغل نبو أي عابد نبو) , والبابليون يضيفون أسمائهم إلى إلههم (بل) أو (نبو) فيقولون (بل ابني أي بل صنعني) و (نبو بالوزور أي نبو يحمي ابني) , وكذلك اليونان بعد تنصرهم ومن أسمائهم (ثيودسيوس أي عطية الله) و (ثيودورس أي عبدالله) وغيرها , ولما جاء الإسلام ظهرت الأسماء (عبدالله وعبدالرحمن وعبدالرحيم) وغيرها .

وقد انهيت هنا الاختصار عن مناقشة جرجي زيدان لطوطمية العرب عند سميث .

◄ **و أقول أن القول بالطوطمية عند العرب ينبني عليه قوادح في أصل الدين** , منها : الميل إلى الالحاد والداروينية , والطعن بأنساب العرب وعلى رأسهم نسب النبي صلى الله عليه وسلم , فالانساب مجملاً ندبت الشريعة الإسلامية إلى احترامها وحفظها وعدم الطعن فيها , حتى إن الطعن في الانساب هو من الكفر كما في الحديث , فالقول بالطوطمية والتأثر بها جعل بعض من تناول أنساب العرب في مختلف أزمانهم إنما هم خليط لا أب جامع له انتسب إلى صنم مثل قبيلة قيس المضرية منسوبة إلى طوطم وهو صنم قيس , ومثل الاعتقاد بأن كهلان الجذم العربي الكبير هو نسبة إلى صنم يسمى كهلان أو كهل , وأن مضر هو طوطم عبارة عن قبة – أي خيمة – حمراء اجتمع تحتها وحولها أخلاط من الشعوب وتسمو مضر , وكذلك ربيعة الفَرَس نسبة إلى طوطمهم وهو الفرس , وكل هذا خطأ فاحش , وقد أثبت تراث العرب ما يبرر كل هذا بعيد عن التوهم بالطوطمية , بل وحتى النقوش المسندية أيضاً التي أثبتت كهلان أنه قبيلة قبل ظهور عبادة الصنم كهل الذي يتوهم أصحاب الطوطم بعلاقته بهم , وكذلك حمير , بل وسبأ ورد أيضاً أنهم قبيلة , وهذا يسقط الوهم الطوطمي .

وكذلك قد شذّ من يعتقد بالطوطمية وجعل من ورود لفطة (شعب) الدالة على القبيلة أنها لا تدل على القبيلة بمفهومها الذي وضعه نسابة العرب , وهذا جهل مركب منه , فاعتقد أنها مثل لفظة (شعب المملكة العربية السعودية , شعب سلطنة عمان , شعب ..) أو على مصطلح الشعوب عند الأمم الأخرى التي لا تصنّف اليوم على أنها من أسلاف العرب , أ, على مصطلح الشعوب القائم عليه مصطلح الشعوبية الحركة الشهيرة المناوئة للعرب بعد الإسلام , فأسقط ما تحتمله اللفظة هنا بمعانيها الغير محتملة على سياق آخر لها , وهو بهذا جاهل جهل مركب , والحقيقة أن كلمة (شعب) عند ارتباطها بأجذام العرب الكبرى هي دليل على أنها قبيلة كبرت وتشعّبت , وعلى هذا علماء الانساب , فمضر شعب وكهلان شعب وحمير شعب , بل وعند التقسيم العربي : قحطان شعب وعدنان شعب , وهذا مستفيض مشهور في تقسيم طبقات الانساب عند علماء الانساب .

فإن كانت الطوطمية من نظرة فلسفية اجتماعية تقتصر على الوثنية والأساطير الدينية المؤطرة بالوثنية عند العرب فهي محل نقاش من ناحية قبولها بهذا التصنيف أو عدم قبولها , أما إن كانت الطوطمية تتعدى ذلك لتجعل من أنساب العرب مجرد أقوام ينتسبون إلى طوطمٍ ما وليس أب جامع وأن النسب عندهم هو إلى الأمومة وأن القرابة بينهم مرجعها الطوطم فهو أمر مرفوض دينياً وعلمياً .

◄ الخلاصة : أن الطوطمية عند العرب منقوضة وساقطة , وهي من نتاج الطوطمية كديانة قديمة عند الشعوب المتوحشة البدائية , والتي هي من نتاج نظرية (حق الأم) , والتي هي من نتاج مذهب الارتقاء والداروينية , والتي هي من نتاج ظهور مصطلح الدين الاوريلي والأمومة التي تتناول الانثى في سياق إلهة , والتي هي من نتاج شيوع المذهب الرومانسي المضاد للمذهب الكلاسيكي كتمرد على السيطرة الاغريقية الكلاسيكية على النواحي الفكرية الغربية , فلا أصل هذا المذهب يتوافق مع الدين الإسلامي , ولا فروعه تتسق مع السياق الثقافي العربي , وليس الآخذ به بمحل اطمئنان لسلامة فكره اسلامياً ولا عربياً .

فنحن العرب لسنا أبناء أصنام , ولا أسلافنا قرود , ولا أجدادنا عبارة عن طوطم كحال الهنود الحمر , ولم أقف على ما يشير بشكل صريح أو غير مباشر في تراثنا العربي إلى اعتقاد آبائنا بأنهم من نسل صنم أو قرد أو طوطم أو إلهة أُمّ !! .

في هذه المقالة الاستقصائية تناولنا رحلة طَوْطَمَة الأنساب العربية انطلاقا من التمرد الفكري على الكلاسيكية اليونانية والاغريقية ومرورا بتأليه الاناث وحماقات داروين وانتهاء بإسقاط ثقافات الهنود الحمر في استراليا وأمريكا وغيرها بصفتهم أمم متوحشة عند هؤلاء المستشرقين على أنسابنا العربية لنكون أبناء طوطم عبارة عن صنم أو خيمة حمراء أو فَرَس أو حتى قرد دارويني أحمق !!





مقالة استقصائية
عبدالهادي بن حربي الزهراني
2024